

آثار العلم في حياة المرأة.

الدكتورة غنية قري

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر

عقل المرأة لأنه يدرك أن فساد رجل واحد يفسد إنسانا واحدا أما فساد امرأة فيفسد أمة برمتها.

فكم من امرأة بسبب جهلها وبسبب التقاليد البعيدة عن مقاصد الشريعة الإسلامية فكرت في اتباع خطوات المرأة الغربية اعتقادا منها أنها ستنال حريتها وسعادتها، إن المرأة إذا تشبعت بالعلم والثقافة أدركت عن طريق البحث والدراسة أن الإسلام لا يريد لها إلا الخير التام والسعادة في الدنيا والآخرة.

ب- أثر العلم في تربية الأولاد:

يقول الشاعر:

وإذا النساء نشأن في أمية

رضع الرجال جهالة وخمولا

إن العلم يفيد صاحبه والمجتمع في آن واحد، فما هي الفوائد التي تعود على المرأة من خلال ما تكسبه من علم وثقافة؟

أ- أثر العلم في تكوين شخصية المرأة:

إن المرأة المتعلمة تدرك ما عليها من واجبات تجاه خالقها ومجتمعها فتسهر على حسن تأديتها، إن العلم ينير بصيرة المرأة فيجعلها واثقة من نفسها قوية الشخصية لا تخضع لأي تأثير أو تقليد أعمى، إن أي تيار فاسد يزرع بذوره في الأوساط الجاهلة فتروج بينها الخرافات بلا أي تعقل.

وما زالت التيارات المعادية للإسلام تحاول أن تستغل العقل البشري خاصة

وهل تيسر للمرأة أن تمرض زوجها أو ولدها إذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الأدوية؟ نعم قد تيسر للكثير من الجاهلات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الأدوية السامة أو بجعل دواء مكان آخر "فالأم الجاهلة تستطيع بدون إرادة قتل أطفالها بمجرد اعتقادها أن دواء معيناً يفيد ويعالج داء أبنائها على أساس أن نفس الدواء عالج مرضها.

أما الأم المتعلمة فإنها تدرك أنه إذا كان الطفل يحتاج إلى الغذاء المادي والغذاء العاطفي فهو أكثر حاجة إلى الغذاء العقلي، كما أنها مدركة أن طفلها في المراحل الأولى من حياته يقلد كل تصرفات أمه إيجابية كانت أو سلبية، ولهذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بأن تكون الأم قدوة حسنة لطفلها فقد روي عن عبد الله بن عامر قال: "دعني أُمي يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطك فقال لها صلى الله عليه وسلم ما أردت أن تعطيه؟ فقالت أردت أن أعطيه تمراً فقال لها صلى الله عليه وسلم أما أنك إن لم تعطه كتبت عليك

ويقول مثل قديم: "إن تعليم رجل معناه تعليم إنسان واحد أما تعليم امرأة فهو تعليم شعب بأكمله"، ويتفق هذا المثل مع البيت الشعري:

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعباً طيب الأعراق

فإذا تصورنا أن لكل أم متعلمة طفلين أو ثلاثة أطفال فلا شك أن أثر هذا العلم تظهر ثماره في الأسرة فيحقق لها سعادتها كما تجنى ثماره خارج الأسرة فيحقق رقي الأمة، ولم يفرض الإسلام العلم على المرأة مثلها مثل الرجل إلا لصعوبة المسؤولية الواقعة على عاتقها، يقول عليه الصلاة والسلام: "المرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها".

ولا شك أن ما يساعد المرأة على تحمل مسؤوليتها هو نور بصيرتها الذي لا يتأتى إلا بالعلم، إن المرأة الجاهلة قد تضر عن غير قصد أبنائها وزوجها، فقد جاء في تفسير المنار ما يلي: "أتمريض المرأة لزوجها إذا هو مرض أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكشف مخبآت بيته؟

كذبة".

المبدأ قبل أربعة عشر قرناً في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من أسرى المشركين في بدر، فمن كان له فداء أطلق سراحه ومن لم يكن له، كان فداؤه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة.

وبعد أن فرض الإسلام العلم على المرأة والرجل على حد سواء وتمسك المسلمات بمبدأ تثقيف النفس وتهذيبها نذكر على سبيل المثال أم المؤمنين عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت مرجعاً للمسلمين في أمور الدين بالإضافة إلى حفظها الشعر ومعرفتها لعلم الفلك والطب نجد الدول الحديثة تعقد مؤتمراً في الخرطوم عام 1970م بهدف القضاء على الأمية المنتشرة خاصة بين فئة الإناث.

ولم يكتف الإسلام بإلزام الوالد بتعليم بناته بل ألزم الزوج بتعليم زوجته إذا كانت جاهلة لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة".

والوقاية من النار لا تكون إلا بتعلم مبادئ الشرع الإسلامي، ولم نعر على

فالمرأة المتعلمة تدرك إذن أن تمسكها بالدين والأخلاق ينعكس أثره على تكوينه ونموه، فالطفل الذي يتعود من أمه الصدق ينشأ وهو ينفر من الكذب إذ يقول المثل: "من شب على شيء شاب عليه"، فالأم المتعلمة تحسن تربية ولدها وتأديبه وتهذيب نفسه فتثقف عقله وروحه فتساعده بعملها على تنمية مواهبه، فالطفل كصفحة بيضاء وعلى الأم أن تملأ هذه الصفحة بما يجب من توجيهات ونواه وحسن التصرف لقوله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

وخلاصة القول عن حق المرأة في التعلم هو أن الشريعة الإسلامية منحت المرأة حق التعلم والثقافة باعتبار أن العلم يعد العامل الأساسي والوحيد لإخراج الأمة من التخلف، وإذا كانت الأمم المتحدة تنادي بعدم الاكتفاء بتعليم الذات وإنما يجب نشر العلم على كافة البشرية التي لا زالت تتخبط في ظلمات الجهل فقد طبق المسلمون هذا

من العمر حيث جاء في المادة الأولى من مرسوم 1966م أنه: "يكون التعليم الأساسي إجبارياً لجميع الأولاد الذين بلغوا السنة السادسة من العمر".

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للمرأة الجزائرية فإنه يلاحظ أن بعض الدول الإسلامية الحديثة التي تنتمي إلى أمة "أقرأ" تعاني من نسبة مرتفعة من الأمية خاصة في الوسط النسوي ونذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر دولة شقيقة كسوريا والتي تقدر نسبة الأمية فيها بـ 67%.

هذا، ويلاحظ أن نسبة الأمية بالجزائر انخفضت من 85% سنة 1961م إلى نسبة 42.7% عام 1989م وطبعا الفئة الأكثر تضرراً من هذه النسبة هي فئة النساء وما يلاحظ عموماً على أمتنا الراهنة أنها تسبح في عالم ثالث (لا شرقي ولا غربي)، فنسبة الأمية للنساء العربيات تقدر بـ 60%.

فرغم أن الشريعة الإسلامية قدّست العلوم وأمرت المسلمين بالاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالصحابة وبالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم

أي قانون في الدول الحديثة والمتطورة يحث الزوج على تعليم زوجته إذا كانت غير متعلمة.

طلب العلم والمرأة في واقعنا الاجتماعي:

لقد كان الكثير من الآباء في مجتمعنا يسعون لإيقاف بناتهن عن مزاولة تعليمهن خاصة عند سن البلوغ لأن مآلهن البيت فإن مثل هذه الظاهرة قد زالت بفضل الله تعالى خاصة في المدن الكبرى بل تجد الآباء يحفزون بناتهم على مزاولة دراستهن العليا مع توفير كل الوسائل الممكنة لهن لذلك.

وإذا كانت منظمة اليونسكو UNESCO، في سنة 1967م تعلن عن وضع برنامج خاص بهدف تعميم التعليم على الذكر والأنثى بصورة متساوية فإن الدين الإسلامي كما سبق القول هو أول نظام عالمي أمر بالقراءة فلم يجعل التعليم حقاً من الحقوق بل واجبا من الواجبات وقد اتخذت دولتنا منهج الشريعة الإسلامية حيث أجبرت الأولياء بإلحاق بناتهم وأبنائهم بالمدارس عند بلوغهم السن السادسة

غربية هي نفسها مستمدة من الشريعة الإسلامية، فنجد مثلاً ما يسمى بمبدأ التعسف في استعمال الحق أن القانون الجزائري مثلاً استمد مادته الأربعين من القانون الفرنسي والذي جاء فيه: "يعتبر استعمال حق تعسفا في الأحوال:

- 1- إذا وقع بقصد الإضرار بالغير.
- 2- إذا كان يرمي إلى الحصول على فائدة قليلة بالنسبة إلى الضرر الناشئ للغير.
- 3- عدم مشروعية الفائدة.

وهذه المبادئ الثلاثة استمدها نابليون NAPOLION BONAPARTE من المذهب الحنفي والمذهب المالكي إذ حدد المذهب المالكي طرق وحدود استعمال الحق منها:

- 1- لا بد من استعمال الحق في إطار الهدف الذي منح من أجله هذا الحق.
- 2- إذا ترتب على هذا الحق إضرار للغير أصبح غير مشروع.

وذكر المذهب الحنفي الضوابط التالية عند استعمال الحق:

- 1- في حالة تعارض حقين فلا بد

تمسكوا بالعلم وطبقوه في حياتهم وفي محيطهم فأفادوا واستفادوا إذ تعلموا القرآن وعلومه فعملوا به.

ولكن أمتنا الحديثة ابتعدت عن دورها المنوط بها فنسيت الرسالة فنسيها الله عز وجل حيث تجد فيها من لا يقرأ القرآن وإن قرأه لا يفهمه وإن فهمه لا يعمل به، وصدق الله عز وجل في قوله: "مثل الذين حُمِلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا".

إن إسعاف أمتنا الراهنة من أزمتها العلمية والروحية لا يكون إلا بإنعاشها بالدستور الرباني المحتوي على أعمدة وأسس متينة أولها فريضة العلم لقوله تعالى: (اقرأ باسم ربك) وثانيها عبادة الله عز وجل الذي يقول: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" وثالثها الإخلاص لوجه الله تعالى.

وإن أردنا تكريس هذه المبادئ الثلاثة الأساسية في واقع أمتنا لا بد أن نتخلص من مرض نفسي عانينا منه منذ مئات السنين ولا زلنا نعاني منه وهو عقدة الخضوع للغرب ولأمريكا وغيرها في كل صغيرة وكبيرة، وما أثار اندهاشي هو استمداد دولنا لقوانين

عليه فطلب إليه أن يناقله فأبى فشكى ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: **"أنت مضار"** وقال للأنصاري: اذهب فأقله نخله.

إن اقتباس الدول العربية لبنود قانونية غربية معتمدة أصلاً على مصادر الشريعة الإسلامية ليدل على غفلتنا وإهمالنا لديننا ومفاهيمه، فلا منفذ لإنهاض أمتنا من كسادها وإخفاقها الراهن إلاّ بعودتها لمنهج السلف الصالح، فبفضله عم الرقي على الإنسانية جمعاء إذ لم يسد الفراغ العلمي الذي عانت منه الأمة الغربية أمداً طويلاً إلاّ بالاقتباس من الاكتشافات العلمية العربية الإسلامية، فقد وصلت النهضة الإسلامية إلى كافة أنحاء المعمورة.

إن تطور الأمم عبر كل العصور مرهون بمدى قدرة الأمم على التفكير والإبداع وما فرض وجود الأمة الإسلامية العربية السالفة ومساهماتها في تطوير الحضارات إلاّ باكتشاف وابتراع مختلف العلوم عن طريق أبرز شخصياتها العلمية كابن سينا، ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم

من مراعاة الأولوية في استعمال ما كان منهما أكثر فائدة.

2- لا بد أن تتوفر لصاحب الحق النية الحسنة في استعمال هذا الحق بحيث لا يجوز له استعمال حقه بهدف إلحاق ضرر للغير.

لقد وردت عدة نماذج لقاعدة التعسف في استعمال الحق في القرآن الكريم والسنة النبوية وعمل الصحابة رضوان الله عليهم حيث ورد النهي عن الإضرار عند استعمال الحق لقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ النساء: 11، ولقوله صلى الله عليه وسلم: **"لا ضرر ولا ضرار"**، فالآية الكريمة تدل على مشروعية الوصية ولكن بشرط عدم الإضرار بالورثة والقاعدة العامة لا ضرر ولا ضرار واضحة على أساس عدم إلحاق الأذى بالغير بالقول وبالفعل وعدم تجاوز حدود الحقوق بحيث استعمالها مقيد بعدم الإضرار بباقي الأفراد، روي عن سمرة بن جندب أنه كان له عنق من نخل في حائط رجل من الأنصار ومع الرجل أهله وكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به وشق

من عباقرة العالم.

وتثقيفها.

لقد أثبت المشعل العربي الإسلامي أن المسلمين لما توحّدوا على كلمة الله عز وجل وعلى سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام أثاروا وأدهشوا العالم بأسره فسادوا فيه وتعزّزوا بفضل الدعم العلمي السليم والعمل المتين.

يقول الشيخ ابن باديس رحمه الله: "علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا من رجال ونساء على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا وكانت لنا بين الأمم"، فالبرغم مما كان يسود الجزائر من اضطرابات سياسية واجتماعية من جراء الاستعمار الفرنسي كان علماؤنا ينادون بضرورة تعليم الفتاة وقد بذلوا مجهودات ضخمة من أجل توعية الأولياء في مجال تعليم بناتهم كما نجد رفاة الطهطاوي الذي يعد من الرواد الأوائل في القطر العربي الذي سعى وساهم وكرس جهوده في تعليم الفتاة

إن نصوص القرآن والأحاديث النبوية فرضت العلم على الإنسان فتكون بذلك قد سبقت نصوص منظمة الأمم المتحدة وبالتحديد نص المادة العاشرة والتي جاء فيها (تمنح المرأة حقوقا مساوية لحقوق الرجل في ميدان العلم)، فيكون القانون الإسلامي أول قانون سوى بين الرجل والمرأة في طلب العلم:

- **والسؤال المطروح هو: لماذا سوى الله تعالى بين الرجل والمرأة في طلب العلم؟**

- وهل المساواة في طلب العلم تتعارض وفكرة القوامة؟

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ التحريم: 6، إن الزوج ملزم شرعا بتوفير السبل اللازمة لتحسين الزوجة بالعلوم الضرورية، فالعلوم الشرعية فريضة على كل مسلم ومسلمة فبهذه العلوم يقي الفرد نفسه من الهلاك والدمار في الدارين وكلما تزود المسلم بالعلوم الشرعية كلما زحزح من الظلمات إلى البصيرة، وفاز

ما اهتم به الدين الإسلامي حيث لم تحت الشريعة الإسلامية على التعلم فحسب، بل فرضته على كل فرد ذكرًا كان أو أنثى.

ويكفي أن الزوج في ظل الشريعة الإسلامية ملزم بتوفير السبل اللازمة لتحسين الزوجة بالعلوم الضرورية، بل إذا كان العلم الذي تطلبه لا يمكن الزوج أن يفيدها إياه وكان ما تطلبه ضروريا فلا يجوز منعها.

وإذا كان البعض، يرى بأن تعليم المرأة يفتح لها فرصا لنشاط مهني في المستقبل فإن حكمة الله عز وجل في مساواة الذكر والأنثى في طلب العلم تتجلى بالدرجة الأولى في وقاية النفس من الهلاك يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾ التحريم: 6.

فكلما تزودت النفس بالعلم زادت نسبة خشية الله تعالى، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: 28، قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه

بالدارين، وعلى هذا الأساس حث الله تبارك وتعالى على المزيد من العلوم لقوله جل وعلا: "وقل رب زدني علما".

سوى الدين الإسلامي بين الذكر والأنثى في طلب العلم لأن إهمال المرأة في هذا المجال معناه ضياع الأمة بأكملها باعتبارها أم الرجل وزوجته وأخته وصدق أحد الكتاب حين قال: "إن إهمال المرأة في مجال العلم معناه فتح باب شر خطير يعم الأمة برمتها، إن تعليم الفتيات معناه فتح الباب الأساسي لطريق النمو والتقدم الاقتصادي والاجتماعي.

وإذا كان بعض الجهلة يفهمون حسب منظورهم الشخصي بأن القوامة "تخولهم" منع المرأة من مزاولة تعليمها فيحرمونها حضور المجالس العلمية بحجة أن المرأة تتعلم فقط ما يفيدها من تسيير شؤونها المنزلية كالمطبخ وغيره.

وإذا كان البعض يدعم هذا الرأي ويدعو لاتباعه فإن الدين الإسلامي بريء من هذه الظلمات بل لم يوجد نظام وضعي اهتم اهتماما بالغًا بالعلوم مثل

تعرف الذل تعمل وتكد وتجتهد ولا تجعل يدها سفلى.

ولقد أدركت الدول الغربية أهمية العلم ومدى تأثيره في الحضارة بل في نموها "ففي عهد رئاسة رونالد ريغن للولايات المتحدة الأمريكية شعرت أمريكا بأن التكنولوجيا الأمريكية أصبحت مهددة من قبل اليابان وألمانيا في الثمانينات، حينها تم عقد مؤتمر تحت رعاية البيت الأبيض لتطوير التعليم وأصدر المؤتمر تقريراً عنوانه "أمة في خطر" حينها ركزت أمريكا جهودها على التعليم والمعلم لمواجهة الخطر الزاحف من آسيا وأوروبا فكان لها ما أرادت".

ملاحظة: للموضوع مراجع

جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة به يطاع الله، وبه يعبد، وبه يوحد، وبه يمجّد، وبه يتورّع، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام".

فكلما ازدادت درجة العلم والتفقه في الدين ثقل ميزان الإيمان والتقوى، سوى الله عز وجل بين الذكر والأنثى في طلب العلم لأن العبادة بدون علم كبنيان بدون أساس فبالعلم يدرك المسلم أركان الصلاة وصحة شروطها وحسن أدائها وبطلانها ... وبالعالم يدرك المرء قيمة الوقت.

فالعلم يعلمنا حسن توزيع أوقاتنا وحسن أداء عبادة الله عز وجل والعلم يبصرنا بأن العبادة لا تتجلى في حبس أنفسنا ليل نهار لأداء فرائض الصلاة ونوافلها، فنفس المسلم عزيزة كريمة لا

